التراث الشعبي في شعر أمل دنقل

الدكتور جابر قميحة

أعني بالتراث الشعبي مضمونة أو مفهومة الخاص في نطاق الحياة المصرية من أغانٍ وأمثال وحكايات وشخصيات وقوالب، والحقيقة أن هذا اللون قليل بل نادر جداً في شعر أمل دنقل، وهذا القليل النادر لا يكاد يظهر أو يطل بوجود له اعتبار مع المصادر التراثية الأخرى التي استرفدها أمل، ومن ذلك الإشارة إلى شخصية «ادهم الشرقاوي» الذي يشغل كثيراً من الأغاني والمواويل الشعبية، والمعروف عند عامة الناس بوقوفه في وجه السلطة، فيقول في قصيدته «أشياء تحدث في الليل» التي أهداها إلى «صلاح حسين» الذي قتل في إحدى القرى المصرية:

وكانت الأصوات في القرى جنائزية الإيقاع

ورحلة الموال في الضلوع تفرد القلوع

«أدهم مقتول على كل المروج

أدهم مقتول على الأرض المشاع».

وثمة كلمات طفولية مرتبطة بعادة مصرية قديمة [وربما عربية] خلاصتها: أن الطفل الصغير إذا خلع له ضرس أو سنة كان يمسك بها، ويقذف بها في وجه الشمس وهو ينشد:

يا شمس يا شمّوسة

خُدي سنّة الجاموسه

وهاتي سنّة العروسه!

وهي كلمات ضارعة بان تعوضه الشمس عن سنته المخروبة بسنة جديدة بيضاء جميلة مثل سنة العروسة، وربما كان قصد الشمس لرابطة البياض بينها وبين السنة المنشودة، وقد يكون ذلك من «المواريث» المصرية القديمة أيام عبادة الإله «رع» الذي يرمز إليه بالشمس.

ويأخذ أمل دنقل المضمون العام لهذه العادة المصرية القديمة، ويقترب ـ إلى حد ما ـ بكلمات عربية رصينة من القوالب الشعبية القديمة، ولكنه يحور في المضمون، بل يعكسه بما يتسع لإلماع حاد في نقد «الأوضاع الاجتماعية»:

صديقي الذي غاص في البحر... مات

فحنطته..

واحتفظت بأسنانه..

كل يوم إذا طلع الصبح: آخذ واحدة..

أقذف الشمس ذات المحيا الجميل

وأردد يا شمس ، أعطيك سنته اللؤلؤية

ليس بها من غبار.. سوى نكهة الجوع !!

رُدِّيه ، رديه.. يرْو لنا الحكمة الصائبة

ولكنها ابتسمت بسمة شاحبةْ

وربما كانت التفاته أمل إلى ما هو عربي وإسلامي من التراث بكل ما فيه من مضامين تاريخية وإنسانية قد استغرقت رؤيته، ورأى في هذا الاستغراق ما يرضي نزعته التراثية، وهو الذي عزف عن «التراث الفرعوني»، ولم يجد فيه العطاء المنشود.

وربما كان هذا العزوف عن الشرائح الشعبية في تراثنا، متسقاً مع اعتزاز أمل بالعربية الفصحى وإخلاصه لها، والمعروف أن التراث الشعبي يعتمد بصفة أساسية على اللغة العامية.

القرآن الكريم، الكتاب المقدس: التوراة والإنجيل، التاريخ العربي والإسلامي، التاريخ الأوروبي، التراث الشعبي المصري: كانت هذه هي أهم المصادر التي استمنحها أمل دنقل عطاءه الفكري والجمالي (والذوقي) في كثير من قصائده على اختلاف وتفاوت في قدر الأخذ والاستلهام.